

فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيْمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بِأَسْنَا **سُنَّتِ** اللّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ  
وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ (85) غافر

---

فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَنْ تَجِدَ **لِسُنَّتِ** اللّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ تَجِدَ  
**لِسُنَّتِ** اللّهِ تَحْوِيلًا (43) فاطر

---

إِنَّ اللّهُ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا  
فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ (11) الرعد  
وقوله في هذه الآية الكريمة : { حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ } يصدق بأن  
يكون التغيير من بعضهم كما وقع يوم أحد بتغيير الرماة ما بأنفسهم  
فعمت البلية الجميع ، وقد سئل صلى الله عليه وسلم : أنهلك وفينا  
الصالحون؟ قال : « نعم إذا كثر الخبث » والله تعالى أعلم .

---

{ ذَلِكَ } العذاب الذي أوقعه الله بالأمم المكذبين (1) وأزال عنهم ما  
هم فيه من النعم والنعيم، بسبب ذنوبهم وتغييرهم ما بأنفسهم، فإن الله لم  
**يك مغيرا** نعمة أنعمها على قوم من نعم الدين والدنيا، بل يبقياهم ويزيدهم  
منها، إن ازدادوا له شكرا. { حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ } من الطاعة إلى  
المعصية فيكفروا نعمة الله ويبدلوها كفرا، فيسلبهم إياها ويغيرها عليهم  
كما غيروا ما بأنفسهم.

---

، يقرر عدل الله في معاملة العباد؛ فلا يسلبهم نعمة وهبهم إياها إلا بعد  
أن يغيروا نواياهم ، ويبدلوا سلوكهم ، ويقلبوا أوضاعهم ، ويستحقوا أن

يغير ما بهم مما أعطاهم إياه للابتلاء والاختبار من النعمة التي لم يقدرها ولم يشكروها . . . ومن الجانب الآخر يكرم هذا المخلوق الإنساني أكبر تكريم ، حين يجعل قدر الله به ينفذ ويجري عن طريق حركة هذا الإنسان وعمله؛ وعلاقة قدر الله به في هذا الوجود؛ وعلاقته هو بهذا الكون وما يجري فيه . . . ومن هذا الجانب يتبين تقدير هذا الكائن في ميزان الله؛ وتكريمه بهذا التقدير؛ كما تتبين فاعلية الإنسان في مصير نفسه وفي مصير الأحداث من حوله ، ؛ فيبدوا عنصراً إيجابياً في صياغة هذا

### المصير

عَنْ ابْنِ عُمَرَ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا- قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - يَقُولُ: - اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ زَوَالِ نِعْمَتِكَ، وَتَحَوُّلِ عَافِيَتِكَ، وَفَجَاءَةِ نِقْمَتِكَ، وَجَمِيعِ سَخَطِكَ - أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ . (1)

وقد جرت سنة الله في عباده أنهم إذا استقاموا على دينه وتباعدوا عن غضبه وجاهدوا في سبيله أنه ينصرهم، ويجمع كلمتهم ويجعل لهم العاقبة الحميدة، كما قال سبحانه: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ وقال سبحانه: وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ وقال عز وجل: وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ الَّذِينَ إِن مَكَّنَّاهُمْ فِي

الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ  
عَاقِبَةُ الْأُمُورِ وَقَالَ سُبْحَانَهُ: فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ

أما إذا ضيعوا أمره وتابعوا الأهواء واختلفوا بينهم، فإن الله سبحانه يغير ما  
بهم، من عز واجتماع كلمة، ويسلط عليهم الأعداء، ويصيبهم بأنواع  
العقوبات من القتل والخوف ونقص الأموال والأنفس والثمرات وغير ذلك  
جزاء وفاقا وما ربك بظلام للعبيد، وهذا هو معنى قوله عز وجل: إِنَّ اللَّهَ  
لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ .

والمعنى: أنه سبحانه لا يغير ما بالعباد، من عز ورغد عيش واتحاد كلمة  
وغير ذلك من صنوف النعم، إلا إذا غيروا ما بأنفسهم من طاعته  
والاستقامة على دينه، والأخذ بالأسباب النافعة، وإعداد المستطاع من  
القوة، والقيام بالجهاد، فإذا فعلوا ذلك غير الله ما بهم، فصاروا بعد العزة  
أذلة، وبعد الاجتماع والاتحاد متفرقين ومختلفين، وبعد رغد العيش وأمن  
السبل إلى فقر وحاجة واختلال أمن، إلى غير ذلك من أنواع العقوبات.

ومن تأمل **سنة الله** في عباده علم صحة ما دلت عليه هذه الآيات من  
جهة الواقع كما قد علم ذلك من جهة النقل وإنما يصاب أهل الإسلام  
في بعض الأحيان بسبب ما يحصل منهم من الذنوب والتفريط في أمر الله  
وعدم الإعداد المستطاع لأعدائهم ولحكم أخرى وأسرار عظيمة كما قال  
تعالى : وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ وَقَالَ  
سُبْحَانَهُ : أَوْلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ

مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ : مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ

**سنة الله** في عباده ، فلن تجد لسنة الله تبديلا ، ولن تجد لسنة الله تحويلا ، كما قال تعالى : وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ وتقدم قوله عز وجل : وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ وقوله سبحانه : وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا الْآيَةَ . وقال سبحانه : فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ

في القصص : { وقالوا إِنْ نَتَّبِعِ الْهَدْيَ مَعَكَ نُنْخَطَفُ مِنْ أَرْضِنَا أَوْلَمْ نُمْكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا } [ القصص : 57 ] . وقوله تعالى : { وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا } [ آل عمران : 97 ] وقوله تعالى : { جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِلنَّاسِ } [ المائدة : 97 ] الآية . وقوله تعالى : { فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ } [ قريش : 34 ] . {الذي أطعمهم من جوع وآمَنهم من خوف} بين الله نعمته

عليهم، النعمة الظاهرة والباطنة، فإطعامهم من الجوع وقاية من الهلاك في أمر باطن، وهو الطعام الذي يأكلونه، {وآمَنهم من خوف} وقاية من الخوف في الأمر الظاهر؛ لأن الخوف ظاهر، إذا كانت البلاد محوطة بالعدو، وخاف أهلها وامتنعوا عن الخروج، وبقوا في ملاجئهم، فذكرهم

الله بهذه النعمة، {وآمنهم من خوف} آمن مكان في الأرض هو مكة،  
ولذلك لا يُقطع شجرها، ولا يُحش حشيشها، ولا تُلتقط ساقطتها، ولا  
يصاد صيدها، ولا يسفك فيها